

تاریخ الاستلام: 2025/02/18



اسم العلم في مخطوطات سويسير

جامعة عبد الرحمن ميرة- بجاية/ الجزائر

Le nom propre dans les manuscrits saussuriens

Djili mohamed zine
mohamedzine.djili@univ-bejaia.dz
University Abderrahmane Mira of
Béjaïa - Algeria

ملخص البحث

نحن على علم أن قِوام العلامة، وفقاً لمنظور سوسير، على الاتحاد الاعتبائي بين الدال والمدلول. هذان الكيانان نفسيان إذ لا وجود لأحدهما إلا تبعاً للآخر. بناء على تحديد هذه العناصر والتأكيد على أن العلاقة بينها اعتباطية، يشير فرديناند دي سوسور إلى عدم اندراجها في اشتغال اللسان وعمله. ومع ذلك، ثمة قرائن على أن فرديناند دي سوسير قد سلم، مرة واحدة على الأقل، بالتصور الثلاثي للدليل (التصور الأرسطي) حين زاول أسماء الأعلام وأسماء المواضع/الطبونيم. علاوة على ذلك، فقد كانت المقولة اللسانية لأسماء الأعلام وأسماء المواضع في الفترة بين 1900 و 1904، موضوعاً رئيساً لدراساته. نقترح - نظراً لأهمية هذا الموضوع في علوم اللسان (اللسانيات وفلسفة اللغة) والتحول الراهن صوب دراسة مخطوطات سوسير- البحث في المزاولة التي قدمها فرديناند دي سوسير لمقولة اسم العلم واسم الموضوع، في مخطوطة موسومة بـ "ملاحظات" ب. Söme et sem المحفوظة في مكتبة جنيف، بغية إنفاذ النظر في كيفية مزاولة هذه المقولة اللسانية وما إذا كانت تعدّ استثناء في النظرية العامة للعلامات، الكلمات المفتاحية: سوسير، العلامة، الاعتباطية، مقولة اسم العلم، المخطوطات.

ABSTRACT:

We know that the sign, according to the Saussurean perspective, is constituted by the arbitrary union between signifier and signified. These two entities are psychic and one only exists as a function of the other. From the delimitation of these elements and the affirmation that the relationship between them is arbitrary, Ferdinand de Saussure makes the reference "not belonging" to linguistic functioning. However, there are indications that Ferdinand de Saussure admits, at least once, the triadic conception of the sign (Aristotelian conception) when he deals with proper names and geographical names/toponyms. In addition, in the period between 1900 and 1904, the Geneva linguist had as the main theme of his studies the linguistic category of proper names and geographical names. Aiming at the importance of this theme in the Language Sciences (Linguistics and The Philosophy of Language) and the current reorientation of the study of Saussurean manuscripts, we propose to research the treatment given by Ferdinand de Saussure to the category of the proper name and the geographical name, in the manuscript "Notes item. Söme et seme" present in the archive Ms. Fr. 3951 archived at the Library of Geneva, with the aim of understanding how this linguistic category is treated and if, indeed, it constitutes an exception to the general theory of signs.

Keywords: Saussure, sign, arbitrary, proper names, manuscripts

1. مقدمة:

نُشرت محاضرات ف. دي سوسير في اللسانيات العامة¹، استناداً إلى بعض مخطوطاته، وإلى بعض أمالي طلبته حيث أقرت تلك المحاضرات اللغة بوصفها موضوعاً للدراسة، فعُدّت في أعقاب ذلك عماداً عليها قِوام اللسانيات. لكن ما اللغة؟ تُعدّ اللغة في تصوّر سوسير نظاماً يقوم على العلاقة المعقودة بين مُكوناته، إذ يلزم من ذلك جعل دراسة الجزء الداخلي من نظامها محل اعتبار بدلاً من دراسة علاقاته الخارجية.

بوسعنا القول، إنّ الإقرار بتعريف اللغة بوصفها نظاماً قائماً بذاته يعني معارضة مختلف التيارات اللسانية والفلسفية التي عقدت صلة بين العلامات وبين ما تحيل إليه في الواقع، ثمة نظرية إحالية ساذجة، ضمن تلك التيارات، نزعت إلى الدفاع عن كون كلمات اللغة تحيل مباشرة إلى الأشياء (الموجودات) التي تُعينها، دون واسطة دلالية؛ مما يعني أن الرابط بين الكلمات والأشياء لا تحدده الدلالة، حيث عُدّت اللغة في ضوء هذا المنظور قائمة.

صاغ سوسير نقده لهذا المفهوم في محاضراته المنشورة بقوله: "تُمثل اللغة في نظر بعض الناس، إذا أرجعت إلى مبدئها الأساسي، مُصطلحيّة؛ أي قائمة من الكلمات موافقة لعدد مماثل من الأشياء (SAUSSURE, p. 79, 1973). حيث نفى سوسور، بمسلكه هذا، أن تكون اللغة محض قائمة من الأشياء الموجودة في العالم. إلا أن إنكار تصوّر اللغة من حيث هي قائمة لا يعني بالضرورة إنكار أن بعض المقولات ضمن العلامات اللغوية لها ما يُطابقها من الأشياء، إذ نشايح بهذا الشأن ما ذهب إليه شيزا (Chiesa 2008):

على أنّ عدم التسليم بتصوّر اللغة على أنها قائمة لا يلزم منه رفض مفهوم القائمة بوصفها حالةً مُعينةً للغة، وعليه لمجموعة من الكلمات؛ أي الأسماء، التي تتضمن إحالة إلى الأشياء التي يعرفها المتكلمون. وتبعاً لذلك، فإنّ الأمر يقتضى في الحال، مُعاودة فحص قضية تصوّر القائمة في كتابات سوسور (تشيزا، ص 11، 2008).

تتأتى الحاجة إلى مُعاودة فحص القضية التي بلورها سوسير في مخطوطاته من حقيقة أنه على الرغم من ورود اسم العلم مرة واحدة فقط في محاضراته في اللسانيات العامة²، إلا أنّ الأدلة الكثيرة تُظهر أن سوسير قد انبرى لدراسة أسماء الأماكن وعلم أصول أسماء الأعلام، في مطلع القرن العشرين،

¹ سنصطلح عليه بـ CLG.(م.ل.ع).

² يظهر اسم العلم في C.L.G في الفصل الذي عقده سوسير للقياس فقط. سنستشهد بهذا المقتبس على مدار هذا المقال كُله.

على وجه الضبط، إبان الفترة ما بين 1900 و 1904. كما ذهب إلى ذلك (Testenoire 2008): "(...) ظلت قضية اسم العلم في صلب الشواغل العلمية لفرديناند دي سويسر منذ مطلع القرن العشرين. بداية من عام 1900 إلى غاية عام 1904، حيث كانت جميع مداخلاته العلمية، في الواقع، مُكرسة لدراسة أسماء الأماكن في منطقة جنيف." (تستنوار، ص 106، 2008).

إنّ الأعمال العلمية التي أشار إليها الباحث تستنوار (Testenoire 2008) هي، بشكل رئيس، مُداخلتان كان سويسر قد ألقاهما في رحاب جمعية التاريخ والآثار في جنيف موسومتان بـ: "اسم مدينة أوروون في العصر الروماني" (1901) و "أصول أسماء بعض الأماكن في منطقة جنيف" (1903)¹ إذ ينبغي أن يُقال عن نتاج سويسر العلمي هذا الذي يتضمن بشكل رئيس مسألة أسماء الأماكن، إنّ سويسر قد انطلق فيه من منظور تطوري (دياكروني) كي يستجلي دراسة الإحالة. علاوة على هذه الدراسات، ثمة عناصر في بحثه تشير كذلك إلى مزاوَلته دراسة الجنس التصحيفي والأساطير الجرمانية، التي كان مدارها على مسألة أسماء الأعلام.

على الرغم من مزايا هذا العمل فيما له صلة بموضوعنا، فقد اخترنا العمل في مقالنا هذا على الاعتبارات التي بسطها سويسر بشأن أسماء الأعلام وأسماء الأماكن في المخطوطة الموسومة بـ: "عنصر الملاحظات. Sôme et sème" الذي يتسنى لنا العثور عليه في أرشيف مكتبة جنيف العمومية Ms. Fr. 3951². لم تؤرخ هذه المخطوطة بدقة، ولكنها بحسب تستينوار لـ (Testenoire 2008)، وبالنظر إلى أنها تبدو من تبعات قراءة مقال ميشيل بريال "Essay of Semantics"، نرجّح أن تكون قد أدرجت في إسهامات سويسر منذ بداية القرن العشرين. ثم سنزاول بعض المُقتبسات³ من تلك المخطوطات ذات الصلة بالدراسات التي أجراها سويسر حول موضوع الأساطير الجرمانية، المحفوظة في الأرشيف تحت الترميز: Ms. Fr. 3958 3959 Ms. Fr.، التي تتضمن ملاحظات أعمق حول أسماء العلم.

حريّ بنا، قبل بسط ملاحظتنا وبلورتها، توضيح بعض جوانب تحليلاتنا، وكذا بعض المعايير التي سنتوسل بها أولاً، على الرغم من أن المخطوطة التي فحصناها قد حققها سيمون بوكي (S. Bouquet) ورودولف إنجلر (R. Engler)، ونشرت في الكتاب الموسوم بـ: "كتابات في اللسانيات العامة"، فقد أثرنا

¹ لقد وقفنا على ملخصات هاتين المداخلتين من خلال العمل الموسوم بـ: "مصنفات المنشورات العلمية لفرديناند دي سويسر، الذي حرره ليوبولدغوتيه وتشارل بالي، الذي يضم النتاج العلمي لسويسر إبان حياته.

² وقع اختيار المخطوطات المعتمدة في هذا العمل وإعادة إنتاجها من قبل الأستاذة الدكتور إيان مارا سيلفيرا، أثناء إقامتها في جنيف، ما بين 13 و 24 يونيو من عام 1999، بفضل مساعدة مالية من "FAEP (Fundo de Apoio a Ensino e à Pesquisa) - يونيكامب).

³ وقع حفظ المخطوطات في أرشيف مكتبة جنيف تحت الرقم: Ms. Fr. 3958. ملاحظات ومسودات حول Nibelungen في ثماني دفاتر في صندوق من ورق مقوى مقاسه 260 x 205 مم، حيث مجموع عدد الصفحات المكتوبة هو: 386 ورقة. (المجموع لكل دفاتر الملاحظات) Ms. Fr. 3959 3959e ملاحظات ومسودات عن Nibelungen (تابع). تريستان. 9 دفاتر + 4 أظرفة في صندوق من الورق المقوى مقاسه 350 x 275 مم. مجموع الصفحات المكتوبة: 431 وما يليها (ورقة لكل دفاتر). (سونغدو كيم، ص 12، 1993). لم يكن لنا، للأسف، تعامل مباشر مع هذه المستندات.

تحليل المخطوطة بدلا من طبعتها المنشورة. إذ لهذا الاختيار ما يسوّغه لأننا نعتزم الكشف عن سيرورة بلورة نتاج سوسير في موضوع أسماء الأعلام وأسماء الأماكن، مع توجيه العناية إلى الحواشي المزينة على متن المخطوطة، وكذا الشطب الذي أجراه سوسير. حيث نروم بهذا المسلك إلقاء الضوء على بعض أنظار سوسير في مسألة اسم العلم، ومن ثمة في قضية الإحالة.

2. الأسماء في محاضرات سوسير: كلمات منعزلة مُستغنية بذاتها:

ثمة في صُلب محاضرات سوسير تفنيد جليّ لمفهوم اللغة بوصفها قائمة، كما تقدم التلميح إلى ذلك، سوف يتكرر ذلك النقد، في الواقع، في مواضع عدة حين كان سوسير يصوغ حُجَّتَه. إذ يسوغ لنا القول، على سبيل المثال، إنّه حين نظر إلى طبيعة العلامة اللغوية وحددها على أنها اتحاد اعتباطي بين كيانيين نفسيين، فإنّه بصنيعه ذلك يكون قد أثبت بالفعل أن المرجع (réfèrent) ليس جزءاً من اشتغال اللسان وعمله.

يبدو لنا، علاوة على ذلك، أن مبدأ الاعتباطية هو المبدأ الموجه¹ لتمييز² المرجع عن العلامة اللغوية. ذلك لأنّ سوسير حين نقل مبدأ الاعتباطية إلى صلب العلامة؛ أي بين الدال والمدلول، فإنّه يكون قد فصل بصنيعه ذلك، المرجع عن تكوين العلامة اللغوية. حيث يتعارض موقف سوسير هذا، على سبيل المثال، مع الموقف الذي دُوفِع عنه في العصور الكلاسيكية القديمة، حيث وقع التأكيد فيها على أن الاقتران المعقود بين الأسماء والأشياء ذا منزلة اعتباطية، ذلك أنّ مبدأ الاعتباطية استناداً إلى قادي (GADET) جانبان: أحدهما لغوي (بين الدال والمدلول) والآخر فلسفي (بين العلامة والشيء) (ينظر، apud SILVA 1990، ص 41)³. حيث نصّ سوسير بخصوص بهذا المبدأ (1973) على ما يلي:

إنّ اعتباطية العلامة مبدأ لم يناع فيه أحد. لكن غالبا ما يكون اكتشاف حقيقة من الحقائق أقلّ عناء من إحلالها المحل الذي يليق بها. حيث يهيمن المبدأ السالف على لسانيات اللسان برمتها ونتائجه لا تحصى. (SAUSSURE, 1973, p.82).

بوسعنا أن نعتبر إقرار سوسير الذي فحواه: "غالبا ما يكون اكتشاف حقيقة من الحقائق أقلّ عناء من إحلالها المحل الذي يليق بها" على أنه نقد، مرة أخرى، لمفهوم اللغة على أنها قائمة. وهو تصوّر أرسطي خالص. لأنّه إذا كانت اللغة قائمة من الأسماء التي تحيل إلى أشياء مُحددة، فإنّ هذا الاقتران سينشأ بطريقة اعتباطية. حيث سيغدو التفكير في اللغة بوصفها قائمة - استناداً إلى ملاحظات إميل

¹ نعتبر أن الاعتباطية هو المبدأ الذي يتولى توجيه الانفصال عن المرجع وليس نظرية القيمة، ذلك أنّه إن لم تكن العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية، "تفقد القيمة جزءاً من صفتها. لأنها تحتوي على عنصر مفروض من الخارج". (سوسور، ص 132، 1973).

² لقد أثرنا توظيف مصطلح "فصل" لنستعير به عن مصطلح "الاستبعاد" لأننا لا نرى أن ظاهرة الإحالة قد استبعدت من ملاحظات سوسور.

³ جرياً على ما ذهب إليه سيلفا (2008)، فإنّ هذا التمييز الذي أقرته قادي (Gadet) (1990) يتناسب مع تصوّر تحول سوسير عن مبدأ الاعتباطية.

قنسطنتين، ذات الصلة بالمحاضرة الثالثة (1910-1911) التي ألقاها سوسير في جنيف - تفكيراً طفولياً] ساذجاً: "إنه مسلك صبياني. إن نحن ركنا إليه لهنية، سيظهر لنا بيسر ما قوام العلامة اللغوية وما لا تقوم عليه ". (1989, p.148, apud ENGLER, E. CONSTANTIN).

لكن، كيف يبدو اسم العلم في تنظير سوسير في محاضراته؟ بناء على أن المحاضرات تتضمن نقداً حاداً لمفهوم اللغة بوصفها قائمة؟ إذ يظهر التعقيب الوحيد، في الجزء المخصص للسانيات الزمانية، في الفصل المعقود للقياس، ذلك التعقيب ذو الصلة باسم العلم في محاضرات سوسير، حيث لا يشرح ذلك التعقيب مسألة العلاقة بين الأسماء والأشياء التي لم يستشهد بها، على أية حال:

أما الصيغ الوحيدة التي ليس للقياس عليها من سلطان فهي بطبيعة الحال تلك الكلمات المنعزلة التي من قبيل أسماء الأعلام وخاصة أسماء المواضع (مثل باريس Paris وجنيف Geneve وأجين Agen وما إلى ذلك) فهي لا تقبل أي تحليل وتبعاً لذلك لا تقبل أي تأويل للعناصر التي تكونها. (SAUSSURE, 1967, ص 237).

لذلك لا يوجد اعتبار أعمق بخصوص طبيعة أو وظيفة أسماء الأعلام في حال ما إذا افترضنا أن للغة نظاماً له منزلته الخاصة به. إنَّ الجدير بالعناية في هذا المقتبس هو اعتبار أسماء العلم كلماتٍ منعزلة؛ عبارة يبدو أنها تدل على أن تلك المقولة (catégorie) اللغوية تُشكل استثناءً ضمن نظرية العلامات، لأنها لا تعقد علاقات "أفقية" مع نظيراتها من علامات النظام الأخرى.

وهكذا، فقد اقتضت أنظار سوسور، بشأن اسم العلم في سياق محاضراته على نقد مفهوم اللغة بوصفها قائمة وتعذر خضوع تلك المقولة اللغوية لظاهرة القياس، وهو ما لم يحصل في مخطوطات سوسير. سنعكف في هذه المقال، على وجه التحديد، على تحليل مُقتبسات من المخطوطة الموسومة بـ " Notes Item. Sôme et sème "، حيث بلورت فيها مسألة الإحالة وخصوصية أسماء العلم وأسماء الأماكن التي حللها سوسير على نحوٍ أفضل.

3. الاسم والشيء : علاقة عمودية رأسية.

يشير سوسير ضمناً وفقاً لـ (Chiesa 2008)، إلى نمطين من العلاقات التي تقيمها العلامة اللغوية. ستكون إحداها ذات طبيعة أفقية تظهر في صلب نظامٍ لغوي حيث تُعقد بين العلامة وغيرها من العلامات التي تحيط بها. يتأتى لنا التأكيد على أن هذه العلاقة هي العلاقة ذاتها المنصوص عليها في نظرية القيمة. أما النمط الآخر من العلاقات فسيكون ذا طبيعة عمودية حيث سيتضمن العلاقة بين أسماء الأعلام وأسماء الأماكن والأشياء التي تُحيل إليها تلك الأسماء. (ينظر CHIESA، ص 12، 2008).

سننتقل إلى تحليل المقتبسات المختارة من المخطوطة الموسومة بـ: "ملاحظات Item"، بالنظر إلى أن العلاقة العمودية التي عُقدت بين العلامة والشيء هي مثار اهتمامنا في هذه المقال، تلك التي تصف مفهوم أسماء الأعلام وعلاقتها بالمرجع من منظور سوسير¹.

إنّ المقتبس أعلاه ذو أهمية بالغة، من حيث إنّ سوسير حين انتقد اللُّغة بوصفها قائمة، فإنّه يكون قد سلّم بصنيعه ذلك "بما هو مبتذل في علم العلامات (السيمولوجيا)"، وهو ظاهرة أسماء الأشياء (=الأعيان) onymique. ثمة جانب آخر مهمّ ينبغي أن نجعله محل اعتبار ألا وهو عدم استشهاد سوسير، في الواقع، بأسماء العلم وأسماء الأماكن في مقابل استشهاده بالأسماء المشتركة العامة commun من قبيل "بقرة" و"شجرة" و"حجر" و"سما" (التي جرى شطبها في المخطوطة). فالسؤال الذي نطرحه: ما الباعث الذي حمل سوسير على إدراج تلك الكلمات في ظاهرة أسماء الأشياء (onymique)؟ والحال أن كلمات من جنسها قد ساقها سوسير في محاضرات أمثلة على مبدأ الاعتباطية ونظرية القيمة؟ فالمثال المعهود، الذي استشهد به بنفيسست (Benveniste 2005) لاحقاً، وهو المثال الذي وظف فيه سوسير الفرق بين كلمتي bœuf et Ochs لترسيخ مبدأ الاعتباطية، متوسلاً اختلاف اللغات، يُرسيخ شعورنا بالقلق من حيث كون العلامة "ثور" تشترك في الطبيعة ذاتها مع العلامة "بقرة" أو "شجرة".

كما نقرأ، علاوة على ذلك، في مُستهل الحاشية على الجانب الأيسر من الصفحة الكلمات التالية "لما كان آدم هو المانع []". حريّ بنا أن نتوقف للحظة عند هذه الحاشية ذات الصلة بمسألة اللُّغة من حيث هي قائمة ونجعلها محل اعتبار، لقد منح آدم الأسماء للحيوانات والأشياء على النحو الذي طفق فيه النوموتيتفي محاورات سقراط مع كراتيليوس باعتباره أول من سعى الموجودات كلها. من الواضح أن هذه الحاشية تُعبر مرة أخرى عن نقد سوسير لمفهوم اللُّغة بوصفها قائمة، ذلك أن التفكير في اليوم الذي ظهرت فيه اللُّغة والوقت المحدد الذي خُصصت الأشياء بأسمائها هو تفكير لا طائل تحته بحسب تصوّر سوسير حيث يقول:

إنّ العملية التي تكون الأسماء بفضلها قد وزعت على الأشياء في وقت ما والتي بفضلها أقيم عقد بين المتصورات الذهنية والصور الأكوستيكية إنّما هي عملية يمكن أن نتصورها وإن لم يشاهدها مشاهد قطّ. (سوسور، 1967، ص 105).

حقيق أن نؤكد على أن "العنصر الثالث"، في تصوّر سوسير، هو الوعي الذي يمتلكه الفرد المتكلم، وأن كلمة بعينها إنّما تنطبق على ذاتٍ خارجية وليس على الشيء بذاته. حيث يوضح شيزا القضية، Chiesa 2008 بقوله:

¹ تصرفنا بحذف مخطوطة في الأصل بحجم ورقة كاملة لعدم وضوحها وقلة جدواها (المترجم).

"ثمة عنصر ثالث، في اقتران العلامة أو (sème) بين الدال والمدلول، وهو ليس الشيء نفسه، إنما هو الوعي بأن (sème) ينطبق على شيء خارجي مُحدّد. حيث ستبدو العلامة بمقتضى علاقتها بالأشياء، غير خاضعة لقوانين اللّغة وعلاقاتها" (CHIESA، ص 13-14، 2008).

لكن، ما السبب الذي يجعل الأسماء التي تحيل على الأشياء (الأونيميك) غير خاضعة لسلطان القوانين العامة للعلامة اللسانية؟ يسوغ لنا أن نفترض أنه حالما يوجد عنصر خارجي في تكوين العلامة اللغوية، فلن يكون بإمكانها الارتباط بشكل سلبي مع علامات النظام الأخرى. علاوة على ذلك، فإنّ العلامة وفق شيزا (Chiesa 2008)، التي نُظر إليها - مع وجود العنصر الثالث - توقفت عن أن تكون ذات طبيعة ثنائية ونزعت إلى أن تكون ثلاثية، موافقة بذلك تصوّر أرسطو. (ينظر: CHIESA، ص 14، 2008).

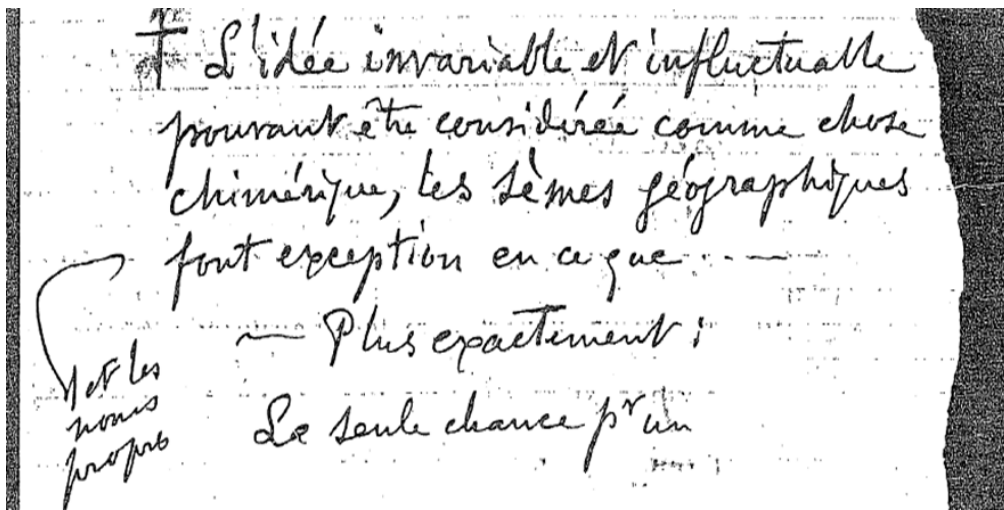
يبدو أن بقيّة هذا المقتبس قد أدرج مقولة الأسماء الجغرافية: في ظاهرة أسماء الأشياء (الأونيميك).

+ Item / Pourquoi nous ne voulions aborder
le moins prometteur le côté idéologique
du signe, il est bien évident que
si les idées de toute espèce offraient
une fixité...
Fixité seulement obtenue par
les noms géographiques

الصورة رقم 1. "حواشي الملاحظات"، ص. 7.

يضيف المقتبس أعلاه مُصطلحين جديدين يقتضيان تحليلاً مُتمعناً؛ الأول هو؛ "الثبات" أما الثاني فهو؛ "الأسماء الجغرافية". حيث يُقيم هذان المصطلحان علاقة بينهما بقدر ما تمثل الأسماء الجغرافية أو أسماء الأماكن ثباتاً مُعيناً بالنظر إلى الأشياء التي تحيل إليها. وعليه، فإنّ اسم بلدٍ ما، على سبيل المثال، ليس عُرضة لتغيير دائمٍ في حال ما إذا كان لا يناسب سُكانه وسكان الدول المتاخمة. علاوة على ذلك، تجدر الإشارة إلى أننا نحوز هذا "الثبات"، بواسطة أسماء الأماكن فحسب، وليس من خلال علامات اللغة جميعها وفق تصوّر سوسور.

يشير هذا المقتبس، مرة أخرى، إلى أن هذه المقولات اللغوية ذات الصلة بالموجودات في العالم غير خاضعة للناموس العام للعلامات شأنها في ذلك شأن أسماء الأماكن في عدم خضوعها لنظرية القيمة. فإذا كانت العلامات كلها، من ناحية أخرى، تقدم، من باب التمثيل، هذا "الثبات"، فستغدو اللغة قائمةً، بل قائمة من السمات التي تُسمي الأشياء، مما يترب عليه تعذر، تصوّر فكرة "القيمة". يقدم سوسير في تِمة نصّه، أسماء علم مُقترنة بمفهوم الأسماء الجغرافية:



الصورة 2 رقم. "ملاحظات iteme"، ص. 8

نلاحظ في الصورة أعلاه، أنّ الأسماء العلمية والجغرافية، من خلال تقديم خاصية الثبات، هي استثناء لما يمكن للمرء أن يستخلصه من القوانين العامة، علاوة على ذلك، فإنّها تُقدم على أنها ثابتة وضرورية يتعذر الاستغناء عنها.

يوضح المثال الذي ساقه سوسير في المقتبس أعلاه على نحو أنسب، على ما يبدو، علة حيابة أسماء الأماكن وأسماء العلم خاصية الثبات. وهكذا، فإنّ نهر الرون هو نهر ينبع من جبال الألب السويسرية ويجري نحو الغرب، ليلبغ الحدود بين سويسرا وفرنسا. حيث ظل ذلك النهر محافظاً على اسمه قرونًا عدة، وعليه فإنّ السكان المحليون لا يعرفونه إلا بذلك الاسم. لنفترض، مع ذلك، أن سلطة سويسرية قد ترغب في تسمية نهر الرون باسم ريسوس. فلن يُدعن سكان المناطق التي يجري النهر خلالها على الفور إلى تغيير اسمه، وفي حال ما إذا ارتضوا ذلك، فسيظلّون يسمونه نهر الرون، إذ سيضعون هذه الوحدة الدلالية الصغرى (sème) إزاء الاسم الجديد ريسوس.

يتّضح من ذلك، أنّ مقولة الاسم ذات طبيعة مميزة عن العلامة اللغوية الأخرى في محاضرات سوسير. واستناداً إلى أنّ حقيقة الأسماء العلمية والجغرافية تُشكل استثناءً عن النواميس العامة [الناظمة] للعلامة، فلم يكن ينبغي لها أن تكون جزءاً من المضامين المعروضة في محاضرات اللسانيات العامة ما بين سنتي 1907 إلى 1911، مما يفسر عدم إثارة هذا الموضوع في طبعة المحاضرات المنشورة بتاريخ 1916.

4. Niebelungen وأسماء الأعلام:

جمعت الدراسات السوسورية حول Niebelungen كما رجّح ذلك ستروبينسكي (Starobinski) (1974) في حوالي ثمانية عشر دفتر ملاحظات. دون عدّ بعض الأوراق. حيث جرى فهرستها بالكامل تحت الرقمين 3958 و 3959. إذ تشير التقديرات إلى أنّ سوسير يكون قد بلور هذا البحث بين عامي 1903 و

1910 (ينظر: Starobinski، ص 9، 1974)، بما في ذلك محاضرات في اللسانيات العامة التي قدمها سوسير في جامعة جنيف. بين سنتي 1907 إلى 1911.

إنّ لعنايتنا ببحوث سوسور حول الأساطير الجرمانية ما يسوّغه من جهة كونه يروم، مجارة لما ذهب إليه (Starobinski 1974)، الظفر بدليل على أن الشخصيات والأحداث الأسطورية ذات أصلٍ مشترك مع الشخصيات التاريخية. يشير السؤال الذي كان عليه مدار تحري سوسير إلى دخول الجوانب غير اللغوية في الأساطير. إذ ينبغي القول، من ناحية أخرى، إنّه كان لزاماً عليه حين أشار إلى العلاقة الحاصلة بين الشخصيات الأسطورية والتاريخية، أن يطرق مسألة اسم العلم.

لقد توسع منظور سوسير حين مزاولته الجنس التّصحيفي والأسطورة ليطال المجال السيميولوجي برُمته وضمّان تأسيس علم جديد يصطلح عليه بالسيميولوجيا، إذ سيظل تفسير العلامة بكاملها في حال عدم تأسيس ذلك العلم عملاً مبتدلاً لعالم لساني تاريخي مُقارن في القرن التاسع عشر. (سونغدو كيم، ص 10، 1993).

وهكذا، تجعل أنظاره بخصوص الجنس التّصحيفي والأسطورة استقامة الوقوف على تفكير سيميولوجي ممكناً، إذ سيتعذر علينا من هذه الحيثية عزل التيارات الثلاثة للفكر السوسوري؛ المحاضرات، والجنس التّصحيفي و Niebelunge دون إقامة علاقات نظرية بينها :

لم يكن نزوع سوسير إلى دراسة الأساطير محض فضولٍ مُضللٍ ولا عُصاً انفصامياً. إذ لم يكن سوسير في الواقع، دارس الجنس التّصحيفي، ذلك أنه، من جهة، فإنّ دراسته الأساطير قريبة ابيستمولوجياً من مضامين محاضراته في اللسانيات العامة، ومن جهة أخرى، ظلّت الأساطير ميداناً معهوداً في الدراسات الهندو أوروبية في القرن التاسع عشر كما هو واقع الحال مع سوسير. (سونغدو كيم، ص 17، 1993).

لقد علّل سوسير البواعث على دراسته الأساطير الجرمانية حين وُكّد على وجوب معرفة العمليات الطبيعية التي أنشئت الملحمة لأجلها ؛ أي ثمة باعث نظريّ حين أنفذ نظره فيها:

" بعد أن بات عصرنا ومجتمعنا لا يشعر بالملحمة، أصبحنا نري ارتياحه تجاهها كما لو أنها كائنٌ مغمور، وهو أمر عادي تماماً، غير أنّ هذا ما يحول، على وجه التحديد، دون أن ألهج بكلام إقصائي ضد أي منوال، ودون الادعاء بأنني سأحيط بكل جوانبها، بل سأدرسها بُغية تحصيل فكرةٍ عن العمليات الطبيعية التي تسبق الملحمة. " (F. De Saussure Ms. Fr. 3958-7، v. Apud SUNGDO KIM، p. 0، 1993)

من المعقول، في هذا الشأن، الإقرار بأنّ السؤال الذي تخلل بحث سوسير حول Niebelungen ذو صلة بتداخل الجوانب اللغوية في صلب الأساطير. علاوة على ذلك، فقد كان لزاماً على سوسير، حين

حلل العلاقة القائمة بين الشخصيات الأسطورية والشخصيات التاريخية، أن يزاوّل مسألة اسم العلم. بهذا المنوال، حيث سيشرح بذلك ما له صلة باسم العلم :

"لاسيماً أن الاسم هو أحد العناصر a.b.c.d ؛ ذات المنزللة المتماثلة تماماً، فلا مزية أن يكون ذلك أكثر ما يحجب حقيقة ما نروم تأكيده؛ لن نُجبر بعض الناس على الإقرار بأنّ الاسم في "ديتريش" غير ذي بال ؛ إذ لا أهمية له إلا في حال ما ألحقنا به مجموعة محددة من السمات، تلك التي لو غابت ستتركنا إزاء فراغٍ مطلق (...) هؤلاء هم الأشخاص أنفسهم الذين لا يجدون مُوجِباً للقول إنهم يفعلون الشيء نفسه مع (Grudun) زوجة (Sigurd) و(Kriemhild) معولين على النقيض تماماً دون إبلاغ قرائهم صراحةً أو أنفسهم عن شخصيات الاسم المستقلة. يجب على المرء أن يُقلّب نظره عن كُتب، ما إن يرغب في إرجاع هذا المسلك المتناقض إلى منهج، ما طبيعة الذوات الجوهرية التي تُعمل الميثوغرافيا التفكير فيها ؟ لنسلم بأنّ للاسم القيمة ذاتها أو أقل قليلاً." (سوسير، أبود أقال، ص 34، 1973).

نلاحظ أن سوسير قد قارب بين مقولة الأسماء والعلامات اللغوية الواردة في محاضراته. حيث ستخضع الأسماء، من هذا المنظور، للعلاقات ذاتها شأنها في ذلك شأن باقي علامات اللغة الأخرى، الأمر الذي يختلف تماماً عن تأكيده أن الأسماء العَلَمِيّة والجغرافية " لا تجري عليها القوانين العامة للعلامة" - كما ورد ذكر ذلك في "مخطوطة Item". وتبعاً لذلك، فإنّ الأسماء العَلَمِيّة ستكون ذات قيمة معينة من حيث علاقتها بعلامات النظام الأخرى، ومع ذلك، يبدو أن الأسماء المناسبة لن تكون خالية تماماً من بعدها الإيجابي، حين نجعل الثبات الذي تُظهره محل اعتبار.

أكد سوسير في مُقتبسات أخرى من ملاحظاته، أن الأسماء هي رموز. إذ سنقف، في حال رجوعنا إلى مفهوم الرمز في محاضراته، أن مفهومه يختلف عن فكرة العلامة:

" يتميز الرمز بكونه ليس دائماً اعتباطياً تماماً، فهو ليس فارغاً بل نجد فيه شيئاً طفيفاً من الربط بين الدال والمدلول: فلا يمكن أن نعوّض الميزان رمز العدالة بما اتفق من الأشياء الأخرى كالعربة مثلاً." (SAUSSURE، ص 101، 1967)

وهكذا، فإنّ العلامة تختصّ باعتباطيتها حيث تحدد قيمتها تبعاً لعلاقاتها المعقودة مع العلامات الأخرى، بينما الرمز، وفق التصوّر الوارد في المحاضرات، مُعلّلٌ نسبياً مما يقف حائلاً دون ارتباطه بعلامات أخرى ذات الصيغة السالبة والخلافية.

على الرغم من ذلك يربط سوسور، كما أتينا على ذلك، بين مفاهيم الرمز والعلامة في حالة الأساطير الجرمانية: دون التشكيك في أنّ "هذه الرموز"،، تخضع للتقلبات ذاتها والقوانين نفسها شأنها شأن مجموعة الرموز الأخرى جميعها، من قبيل الرموز، التي هي كلمات اللغة " (SAUSSURE apud AVALLE، ص 31، 1973).

من المرجح التوكيد على أن التصوّرات المختلفة لكلمة رمز والتحليلات المختلفة التي خصه سوسير بها تقابل أطواراً مختلفة من دراساته. فإذا كانت الأسماء العلميّة والجغرافية، في بداية الأمر، مختلفة عن العلامات اللغوية لأنّها ثباتاً، فإنّها قد عُدّت في أعقاب ذلك رموزاً خاضعة على الدوام لتقلبات نفسها شأنها في ذلك شأن غيرها من العلامات. طالما أن محاضرات سوسير لا تقدم لنا أيّة ملاحظة بشأن هذا الصنف اللغوي، إلا أن الرموز تكون قد حازت هي الأخرى، في الطور الثالث منزلة "المعلّل"، وإلا فلن يحتفظ بها في صنف العلامة اللغوية. حيث يؤكد سوسير في مقاطع أخرى على: «لا يزيد الاسم ولا يقل أهمية عن أي جانب آخر. فهو ليس كما هو الحال عند الفرد الذي يظلّ وسمّاً لصيقاً بالشخص، بل هو على القدر نفسه مثل الأشياء الأخرى، ومن هذا المنظور المهم جداً؛ فإنّ نظير ذلك أنه بينما لا تنفصل الخصائص الأخرى للفرد عنه، حيث تظلّ العماد الراسخ الذي تقوم عليه هويته حتى في حال ما إذا غيّر اسمه، فإنّ كل سمة من سمات الكائن الأسطوري قد تتلاشى للوهلة الأولى بالقدر ذاته من السهولة مثل الاسم». (سوسير، apud PROSDOCIMI، ص 64، 1983).

يقرب سوسير مجدداً مفهوم اسم العلم من مفهوم العلامة اللغوية، بل وينفي التصوّر. الذي يحمل اللغة على المصطلحية أو أحياناً على قائمة من الأسماء التي تحيل على قائمة من الأشياء. إذ يبدو أن سوسير ينفي أن يكون للاسم منزلة خاصة ومكانة ضمن علامات الأسطورة الأخرى. يظهر أن التقليد الميتوغرافي في تلك الحقبة بحسب فيرانديز (2000)، ينزع لصالح اسم العلم الأسطوري ... بخصوص الفرضية القائلة بأنه سيتسنى له استرداد خصائص الشخصيات بصفة كليّة. ومع ذلك، لا يبدو أن سوسير يُشايح وجهة النظر تلك، لأنّ السمات، في تصوّره، ستدمج في الشخصيات الأسطورية ذاتها وليس في أسمائها.

على الرغم من كون اسم العلم الأسطوري، في الواقع، يُشير إلى شخوص الأساطير، في حال التسليم بالعلاقة الإحالية وقبولها، حيث لا يبدو أن سوسير يتصوّرها أدنى من اسم العلم في اللغات الطبيعية. ومع ذلك، يجب أن نضع في الحسبان أننا إزاء مقولتين لغويتين مختلفتين. حيث يؤكد فيرانديز (2000) بشأن هذا الموضوع أن:

"إذا كان اسم العلم في اللّغة يكتسي بصفة اعتبارية مجموعة من سمات من مرجعه الإنساني، فإنّ هذه الميزات في الأسطورة ليست أقل اعتبارية من الاسم، إذ يسوغ أن تنفصل تلك السمات عنه في أي لحظة وينفصل الاسم عنها، ويتّخذ حياة مستقلة، ليتّخذ حياة مستقلة في لحمة أو تنفرط اللحمية من الصيغ الأسطورية". (فيرانديز، ص 188، 2000).

يؤكد سوسور، لما حلل انتقال الأسطورة من جماعة لغوية إلى أخرى حين تكون مندمجة في حقبة، أن الذاكرة، أو بالأحرى نقص الذاكرة، تنهض بدور مهم في التغييرات التطورية التي تتوقف عليها

الأساطير. إذ من الجدير بالعناية ملاحظة أن مقولة الأسماء تكون محل تأثيراً مباشراً مما يؤثر على عامل الذاكرة":

"ثمة مقولات ناجمة عن قصور في الذاكرة، يتعلق الأمر بميادين معجمية من قبيل أسماء النبات (أسماء المعادن، أسماء الحيوانات الصغيرة)، لا يتعلمها الأفراد المتكلمون في كُليتها) معروفة فحسب. وحينها، لن يتوقف الاسم عن التحول. حيث سيخضع إلى قانون تحول مختلف جذرياً عن قانون الكلمة العادية، إذ سيفضي في نهاية المطاف إلى مُتواليات اشتقاقية مُتسقة" (3-3959، 2، v ؛ استشهد بها PROSDOCIMI، 1983، ص 57-58)

يورد سوسير، في هذا الصدد، على أن أسماء النباتات والمعادن والحيوانات. هذه الأسماء هي أسماء الأنواع التي لها طبيعة مميزة عن أسماء العلم. بيد أن اسم العلم قد يُعين كائناً معيناً في العالم، فإن أسماء الأنواع تحدد فئات من الكائنات. لذلك من المناسب إبداء بعض الملاحظات حول طبيعة هذه المقولات اللغوية. من خلال ملاحظة الجملتين أدناه:

(أ) أنجيلا طفلة سعيدة.

(ب) الطاولة من خشب.

يحيل الاسمان "أنجيلا" و"الطاولة" إلى الأشياء (= الموجودات) الواردة في الجملتين السالفتين، حيث يتسنى لنا التأكيد على أن هذه هي الخاصية الأساسية لمقولة الأسماء ...: "أن تكون للشيء، ما يرتضيه كائناً من كان" (بريتو، 2003، ص 25). إذ ثمة مسالك مختلفة، على الرغم من ذلك، للاسم ليعين بها الشيء. فحين النطق باسم أنجيلا، في الجملة (أ) على سبيل المثال، فإنني أحيل إلى شخص معين سُمي كذلك دون علة [مُرَجحة] / صيغة عشوائية. من ناحية أخرى، عند نطق الجملة (ب)، تحيل كلمة "طاولة" إلى جميع أنواع الأشياء ذات الخصائص الكُنْهِيَّة لفئة معينة. وعليه، فإنَّ إحالة الاسم في الجملة الثانية بوسعها أن تُمثل كُل شيء يحوز خصائص الطاولة دون أن تخص طاولة بعينها.

وهكذا، فإنَّ الأسماء العَلَمِيَّة هي أسماء تُعين شيئاً محدداً، كما أتينا على ذلك، كما أنها ذات جانب غير مُعلل. لذلك تنعدم أي سِمة من سمات "الملائكة" التي تُرَجِّح اسم الطفلة وتُعلله [تُسَوِّغه]. على خلاف ذلك، تعين أسماء الأنواع جميع الأشياء ذات الخصائص المحددة كي تُصنف تضيه في جملة.

تندرج الكلمات التي يكثر دورانها من قبيل كلمتي (الماء والذهب) وكذلك الأوصاف المُحدِدة ضمن مقولة الأسماء حيث ساقها سوسور من حيث هي عُرْضة لقصور الذاكرة. تتميز المصطلحات الشائعة، في الواقع، التي يكثر دورانها من جهة انتشارها في أصقاع مختلفة من العالم في الوقت نفسه: إذ يمكن العثور على "الماء"، من قبيل التمثيل في أماكن مختلفة، ولكنه يظل هو الشيء نفسه، ذو التركيب

الكيميائي ذاته إلخ. أما بخصوص الأوصاف المحددة، فإنّ لها سمات تحدد الشيء الذي تحيل إليه. وعليه، فإنّ الوصف المحدد "عاصمة فرنسا" سيحيل على باريس.

وعلى هذا، يبدو لنا أن أسماء العلم ذات الصلة بالأساطير ستصنف بوجه أفضل في السياق السيميولوجي بدلاً من سياق الأسماء العلميّة التي هي من مشمولات اللّغات الطبيعيّة. علاوة على ذلك، فإننا نرى نوعاً من عدم قبول سوسير لها، ومع ذلك، فإنّ قضية العلاقة بين الأسماء والأشياء قد ظهرت في دراساته، على الرغم من تلافيه لها.

بوسعنا أن نضيف، بخصوص الدور الذي نهض به اسم العلم في ملاحظات سوسير ذات الصلة بالأساطير الجرمانية، أن اسم العلم قد شغل موقعاً مهماً في ميدان السيميولوجيا.

5. خاتمة:

يتسنى لنا الخلو، بناء على الجوانب التي كانت محل تحليل سوسير في مخطوطة الموسومة بـ "ملاحظات Item"، إلى أن مقولة اسم العلم لم تكن مُستبعد من تنظيره، بل ثمة، على خلاف ذلك، ملاحظات مهمة في متن تلك المخطوطات التي تفسر لنا مسألة العلاقة بين الأسماء والأشياء الموجودة في العالم.

ثانيًا، نخلص إلى أن نقد تصوّر اللغة من حيث هي قائمة لا يلزم منه إنكار أن مقولات لغوية بعينها تنهض بمهمة تخصيص أشياء بعينها في العالم. وذلك ما تُعززه أنظار سوسير حول ظاهرة الأونيميك وأسماء العلم. علاوة على ذلك، بوسعنا الإقرار أن الدور الذي نهض به اسم العلم حين أعمل سوسير نظره في الأساطير هو دور مهم للغاية في ميدان السيميولوجيا.

حرّي بنا أن نوّكد على جانب آخر، يتمثل في الواقع، أنه إذا عددنا أنّ هذه الاتجاهات الثلاثة لفكر سوسير؛ المحاضرات المنشورة 1916، ومخطوطة ملاحظات item، وأساطير Nibelungen على أنها تنتهي إلى مجال علم العلامات، حيث سيتسنى لنا تعيين جهات تقاطع ذات بال وفروق نظرية في صلب ملاحظات سوسير، ذلك أنه إذا كانت مقولة أسماء الأعلام قد حظيت في صلب ملاحظات سوسير المخطوطة بمكانة مُميّزة وحازت بالتأكيد على خاصية الثبات بالموازاة مع الأشياء التي هي تابعة لها، فإنّ أسماء الأعلام، في مقابل ذلك، لم تشغل في محاضرات سوسير المنشورة أكثر من حيز فقرة واحدة من نظريته؛ إذ ثمة عدم اكتراث في هذا المقام بهذه المقولة اللغوية إذا ما قورنت بعلامات سوسير الأخرى.

يتجلى لنا في هذا المقام أن دراسة الأساطير الجرمانية تنهض بدور رئيس حال التفكير في اسم العلم من منظور سوسير، إذ يتميز اسم العلم، إلى حدّ ما، بالميزات ذاتها شأنه شأن العلامات اللغوية في محاضرات سوسير. حيث تُحدد قيمته كذلك استناداً إلى علاقاته مع علامات النظام الأخرى (a-b-c-d).

ومع ذلك، يُطرح بوصفه رمزاً، وإذا أشرنا إلى ملاحظات سوسير في محاضراته، فسنجد أن قيمة الرمز لا تحددها العلامات الأخرى للغة من جهة كونها مُعللة وليست اعتباطية .

والحل أن، دراسة الأساطير الجرمانية قد حصلت في الفترة ذاتها التي ألقى فيها سوسير محاضراته في اللسانيات العامة في جامعة جنيف. إذ يحملنا هذا على الاعتقاد أن يكون سوسير قد أخفى بحوثه **Nibelungen** عن طلابه، أو أن يكون قد تحدث عن تلك البحوث بطريقة مقتضبة، نظراً لأنهم كانوا سيستدرجونه إلى الحديث عن جوانب سيميولوجية أكثر تعقيداً والتي كانت ستحدث بالتأكيد حيث ستفضي إلى مسألة العلاقة بين الأسماء والأشياء.

بوسعنا، في الختام، التأكيد على أن سوسير قد اتخذ في بداية أعمال تفكيره في القضية، الأسماء المشتركة أمثلة، من قبيل الحجر، والبقرة، والسماء، وغيرها، ثم انصرف عن تلك الأمثلة، على ما يبدو، حين حجاجه لأنه استعاض عنها بكلمات جغرافية وأسماء للأعلام. مما قد يُفسر لنا هذا الشعور بالاضطراب الذي نشعر به حين ندرك أن الأمثلة من الطبيعة نفسها من قبيل تلك المستخدمة في المحاضرات والتي سلطت الضوء على المنزلة والنظام الخاصة باللغة وغياب التداخل بينها وبين أي نظام خارجي تلك الأمثلة التي وظفت في ظاهرة الأونيميك **l'onymique**..

وهكذا، فإننا نُقدر أن دراسة مسألة أسماء الأعلام والأسماء الجغرافية (الأماكن) ومن ثمة علاقة الإحالة تناسب على وجه الضبط دراسات اللغة، ولأسيما إذا عددنا أنه ما تزال ثمة مخطوطات كثيرة بمقدورها أن توضح لنا قضية العلاقة بين العلامات والأشياء [الأعيان] من منظور سوسير.

المراجع

- 1-de Saussure, Ferdinand, & de Mauro, T. (1986). Cours de linguistique générale: édition critique par Tullio de Mauro. Paris: Payot.
- 2-BOUQUET, S. (1992). . La sémiologie linguistique de Saussure : une théorie paradoxale de la référence. Langages, (107).
- 3-FERRÁNDIZ, R. R. (2000). La semiología del nombre propio en Saussure : los Nibelungen y los Anagrammes. . . Revista de Investigación Lingüística, 13(01), 181–205.
- 4-WILMET, M. (1988). , Arbitraire du signe et nom propre. . Cahiers de Linguistique Hispanique Médiévale, 7(.7), 833–842.
- 5-GODEL, R. (1969). R. Les sources manuscrites du Cours de Linguistique Générale de F. De Saussure. Genève : Librairie Droz.
- 6-GADET, F. (1990). , . Saussure: une science de la langue. Paris: Presses Universitaire de France.
- 7-SOFIA, E. (2009). Sur le concept de “valeur pure.” Revista Letras & Letras, 25(1).